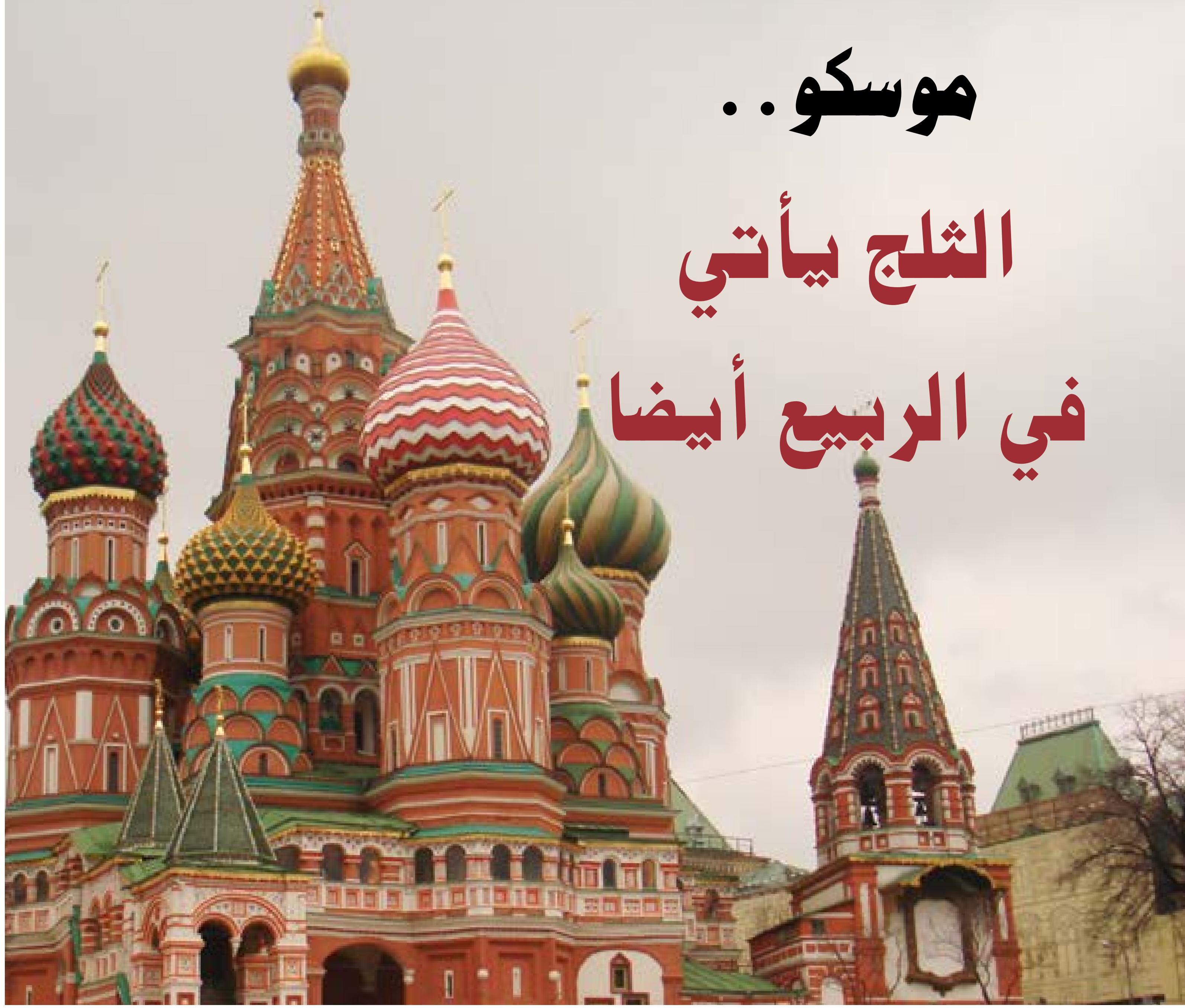

موسكو..
الثلج يأتي في الربيع أيضا

■ **تأتينا المدن على غير موعد..**

هل يحتاج العشق دوما إلى مواعيد؟!

هكذا أغرتني المدن بعشقها، وكأنها الأنثى المستحيلة، تكون المدينة حاضرة كأنها الأنثى، تكون الأنثى متوهجة لتبدو مدينة من الأحلام..

كأن في كل زاوية من شراييني تسكن مدينة، تتفنن المدن في إغوائي، كل واحدة هي أنثى، وعلينا أن نحدد موقفنا مسبقا فيما إذا أردنا الوقوع في الغرام أم نتعفف، لكن ليست كل النساء نستطيع معهن ممارسة غض النظر، كما أن هناك مدنا لا يمكنك إلا التورط في محبتها، سواء أكان قلبك على موعد مع فاتنته، أم أن المدن تنتظر القلوب لتسكنها، وعلى المسافر أن يتأكد من بوصلة قلبه قبل أن تتأكد موظفة المطار من صلاحية تأشيرة إقامته..■

محمد بن سيف الرحبي

لا أدرى ما الذي جعل موسكو إحدى المدن التي أدرجتها على خارطة أحلامي، وهي النائية عني بجغرافيتها وبأفكارها..

ولا أدرى أي حلم هذا الذي ساقني إليها على غير موعد، ألم أقل أن المدن لا تحتاج إلى مواعيد، كما هو حال العشق دوما، يكون بالسمع أحيانا، فالأذن تعشق « كما قال شاعرنا القديم» قبل العين أحيانا، هكذا حزمت حقيبتي نحو موسكو، أحسست أنها عاشقة تنتظر.. هكذا يخيّل لي كلما أقول مدينة أراها لأول مرة.. وأنها أنثى يثقل كاهلها البرد.. هكذا أدّعي حينما يتوهج حنيني لضفة أخرى أيمّم نحوها شطر الفؤاد..

وضعت كل ملابسي الثقيلة في حقيبة السفر، لممتها على عجلة من أمري، وهي التي حسبتني في غنى عنها، تخيلت أنني سأندس فيها حالما ستحاصرني المدينة ببردها.. حين يكون الدفء بيننا نكون أكثر اقترابا من بعضنا..

حينما أقول موسكو أشعر بالبرد، رغم أن مسقط كانت ترفع ترمومتر درجة الحرارة مقتربا من الثلاثين درجة مئوية.. كأنه الثلج يتساقط ندفا بيضاء فوق أخيلتي، البياض الذي أغرتنا بلعبته الشاشة، صغيرة كانت أم كبيرة.

■ المدينة ترتدي قبعتها العسكرية

كانت موسكو حاضرة بثلوجها رغم حرائق السياسة..

أراه من مكمن ما داخلي الميدان الأحمر وقد زعقت فوق أحجاره أقدام العساكر تتابعهم عروش وممالك حول العالم تخشى من غضبة الدب إن كشّر عن أنيابه.

.. بريجنيف يخطب في الجموع الحاضرة تحت البرد القارس، يطلق رصاص كلماته، فتتلقف الدنيا صداها لتصيغ منها تحليلاتها وتوقعاتها.

..العواصف الثلجية التي تهبّ على فقراء تشيخوف وقد أنهكهم الجوع وموت الأحلام على الأرصفة المتجلّدة في ليل كأن لا آخر له.. وفي عطر الكلمات يضوي من قصائد بوشكين.

.. نابليون وقد قتل جنوده البرد والجوع، فضاع من يده حلم بناء امبراطورية يخلدها التاريخ.. ويخلده، هكذا تيبست مفاصل الحلم الهتلري، وغرزت أنياب الدبابات في البياض المتجمد، هكذا يغدو الثلج حارسا أمينا للمدينة، يمنع عنها الغزاة والحالمين، ويتيح لها فرصة أن تحلم بغزو الحالمين من حولها، فالحياة إما حلم تسعى رصاصة لتغتاله، أو أنه رصاصة تجبن أن تغتال حلما..

متحف يروي قصة الحربين العالميتين الأولى والثانية

أشياء لا تحصى تتداعى على الجالس فوق مقعد طائرة يتخيّل، يواتيه الواقع بعد أن رسمه «ماكيتات» أولى طوال عقود حياته الماضية.

موسكو، يعرفها ولا يعرفها..

رآها في صور السياسة أكثر مما ينبغي.. وفي صور الإيديولوجيات المتصارعة، سقط الصرح العظيم الذي كان يهز العالم، تناثر كتمثال زجاجي بالغ الضخامة، فرح من فرح، وبكى من بكى، حين رأى العالم كفة الميزان تتهاوى، هكذا، كأنّ ما حدث جزء من دراما هزلية ساخرة، لم يكن سقوط دولة وتفتتها، بل هناك أفكار وقيم وتنظيرات ونتائج وعشرات المفردات التي كان على العالم متابعتها ليفهم ما حدث.. ليستوعب، يجدّد تحالفاته، يعيد ترتيب أفكاره، وينظر للكفّة الباقية من الميزان.. وقد بقيت وحدها برمزية سريالية عصيّة على الفهم.

رآها تلك المدينة في حزام التاريخ.. يمر القياصرة أمام عينيه بغتة، ويرفع لينين قبعته، ويتمختر ستالين خيلاء، ويمضي جورباتشوف رافعا علم الجلاسنوست والبيروسترايكا، وفي يد يلتسين نخب روسيا جديدة كوارثة شرعية لأمجاد الامبراطورية السوفيتية.. وعلى يد بوتين بدأ الحلم أن تكون دولة جديدة تحمل اسم روسيا.

رآها القوة الكفيلة ببقاء كفّة الميزان دون خلل، حين تصاب عاصمة نصف العالم بالزكام يعطس نصف الكرة الأرضية، تراكض القطبان نحو القمر، فيما انشغلت شعوب الأرض بالحفاظ على مكانها في كفة الميزان الذي تحسب عليه..

رآها في سباق الأسلحة المثير، حين يتسرب خبر من موسكو

خارطة مترو الأنفاق تحت الأرض.

يغادر النوم ربابنة العالم، ويصاب ساكنو البيت الأبيض بصداع القلق، يرتدي نصف العالم سترة النجاة، ويرتدي نصفه الآخر خوذة الحرب.

رآها في قصص التاريخ القريب، حين تتشاقى براغ بعيدا عن القبعة الحمراء يأتيها الرد حارقا، وعشرات الآلاف تدوسهم الدبابات السوفيتية التي لا تقبل سوى الطاعة، لا شئ سواها، إما طاعتي وطعامي، وإما عصياني وناري.

رآها في ألف مشهد ومشهد، جميعها تهب على الذاكرة كالريح الباردة التي يخشاها إن وضع قدميه في مطار موسكو، واستقبلته المدينة بذات الغربة الساكنة فيه..

■ أشجار حزينة تنفض عنها الثلج

.. وحين أنزلت الطائرة أقدامها الدائرية كانت المدينة تلوّح بأيد باردة من خلف الأفق الممتد بلا نهاية، الغابات القريبة من المطار تقف بأشجار شبه عارية فوق سطح أبيض، بدا للمسافر أنها أفرشة من الملح الأبيض نثرت بيد متمهلة، أيكون الثلج هكذا؟ تلك هي فتنة المختلف، فتنة التخيّل.. وروعة الاكتشاف، ما تراه العين للمرة الأولى.. ما يحسه القلب في اللقاء الأول!

المضيفة تقول إن درجة الحرارة اثنتان، تتبادل العجوزان القريبتان من مقعدي إشارة من أصابعهما المتغضنة بذات الرقم، شعرت بدفء، قلت في نفسي أن ذلك أفضل من كلمة تحت الصفر، وقد شاهدت الثلج يفترش الأرض في الربيع.

موظفة المطار تبحث في جواز سفري عن شئ ما لم تخبرني عنه، كانت تتحدث مع نفسها بكلمات لا تفهم من وراء الزجاج الحاجز، تثيرها التأشيرة التي لم يلصق طرفها الأخير جيدا، وعلى، مسؤول العلاقات بالسفارة العمانية بموسكو ينتظر على مقربة يشير على المسافر أن يصبر عليها، ووددت القول أن لا مفر من الصبر، هالة القوة أكاد ألمحها حتى في نساء هذه العاصمة القوية، عاصمة بوتين والذراع الملوّحة بالقوّة ضد القطب الواحد وبقية الأفلاك في المجرّة الأوروبية، تترصدني منظومة الصواريخ العابرة للقارات.. وللقلوب.

صافحت بوجهي فضاء المدينة..

■ للمرة الأولى أقابلها وجها لوجه..

أكرر، كل مدينة هي أنثى أقابلها للمرة الأولى، على جبيني ذات القلق، والرغبة في حجز الزمن بين العين والعين كي لا يمر.. شوارع وشوارع، عبرناها وانحرفنا عنها، سيارات في جدّتها دالّة على مستوى المكان، لا يوجد زحام خانق في ذلك المساء، ربما يكون في أوقات أخرى لم أهتد إليها بعد، إشارات مرور تتلوّن في ليل موسكو، نهرها الجميل يسير عازفا لحنه الأثير تحت أضواء المدينة وصخب شوارعها، يمضي الماء غير عابئ بتغيّر مسارات التاريخ من حوله، يعبر في ساقيته الضخمة، ولا يهمه من يسير على ضفتيه، أو أن يعبر تحت جسر أو فوق نفق، يقال إنه يغير لونه إلى الأبيض في الشتاء، يجمّد نحو ٣٠ سم من قشرته العليا مفسحا لمياهه أن تمر دون أعين البشر.

بناية رائعة أسأل عنها فتأتيني الإجابة أنها ضمن خمسة أبنية فخمة أمر بها ستالين مستفيدا من الأسرى الألمان، وفي ظنه لماذا يطعمهم وبإمكانه الاستفادة من وجودهم؟!

يتحدّث علي عن الأسعار، الفرق بين الشيوعية والرأسمالية هي الأسعار، أصبحت كمجنون يركض دون وعي، علي

القادم إلى بلاد الروس منذ ٢١ سنة لا يزال في حديثه بقايا لهجته البدوية الساكنة فيه من بلاده سوريا، وفي لهجته أيضا ملامح من اللسان العماني لوجوده موظفا في السفارة العمانية نحو ١٢ عاما.

يلوح الميدان الأحمر بجمال لا تلغيه قسوة المتخيّل العابرة لعقود من القوة الجبارة، استكان بهدوء أخّاذ تحت ليل المدينة وربيعها البارد، من وراء زجاج السيارة كان البرد يحاول أن يتسلل، يقول للعابر أنا هنا، فاستعد لتقبلي ضيفا ثقيلا على جسدك أيها القادم من صحرائك الساخنة.

في المدينة عدد كبير من الصروح الثقافية التي حاصرتني برغبة السؤال عنها، مكتبات المدينة بدأت رحلة الحرية..

فتحت كل أبواب المعرفة دون خشية من «بلبلة الأفكار» كما كانت النظرة الشيوعية إلى الكتابات القادمة من خارج المكان، الرأسمالية تسير بتوحش فوق شوارعها، لم تعد الحواجز، على اختلافها، باقية في عصر جعل من ثورة الاتصالات نقاط التقاء بكل الدنيا، ٦٦ مليون مشترك في شبكات الهاتف النقال، اللافتات لم تعد غائبة عن مشهد الشارع اليومي، ليس عناك اختلاف بينها وأي مدينة أوروبية، هي موسكو، حارسة الثورة البلشفية، نسيت لينين وثورته، وغضّت الطرف عن أمجاد ستالين، أكثر من ثلاثة عقود تحت حكمه لكن المدينة لم تحتفظ من الصور القديمة إلا ما يؤكد رسوخ حجارتها، وقدرتها على العناد، مع أن اهتزازات التسعينيات كانت كافية لتجعل من روسيا بلدا قابلا للتفكك أكثر فأكثر، بلد ورث الكبرياء والعناد، أبقته روسيا في مزاجها الصلب.

■ يسير على أقدامه دون جواز سفر

فكرت حين بان بياض صباح المدينة بالدخول في نزق شوارعها، الأرصفة كما تبدو من الشرفة مبتلّة بحبات مرمرية كأنها زجاج أبيض بالغ في الصغر، حين يعانق قسوة الأرض يتحول قطرة ماء بالغة التناهي، والتماهي.

سرت وحيدا إلا من نفسي، والمطر الأنيق يقطر بنعومة، له لون الثلج، على «الجاكيت» تتجمع حبات البلور الصغيرة، لها لذّة الرؤية، كلما زادت الكرات البيضاء كثافة دخلت الروح إلى لذاذة أشد، متعة أن تسير في المختلف، برد وبرد، سكون الراء في الكلمة الأولى وفتحها في الثانية، تمتزج المفردتان لتبدوا قدرا جميلا لا يحتاج إلى مفردة دفء، حسناء تعبرني تغطي رأسها بحجاب مميز، لكن الساقين مكشوفان بما يكفي

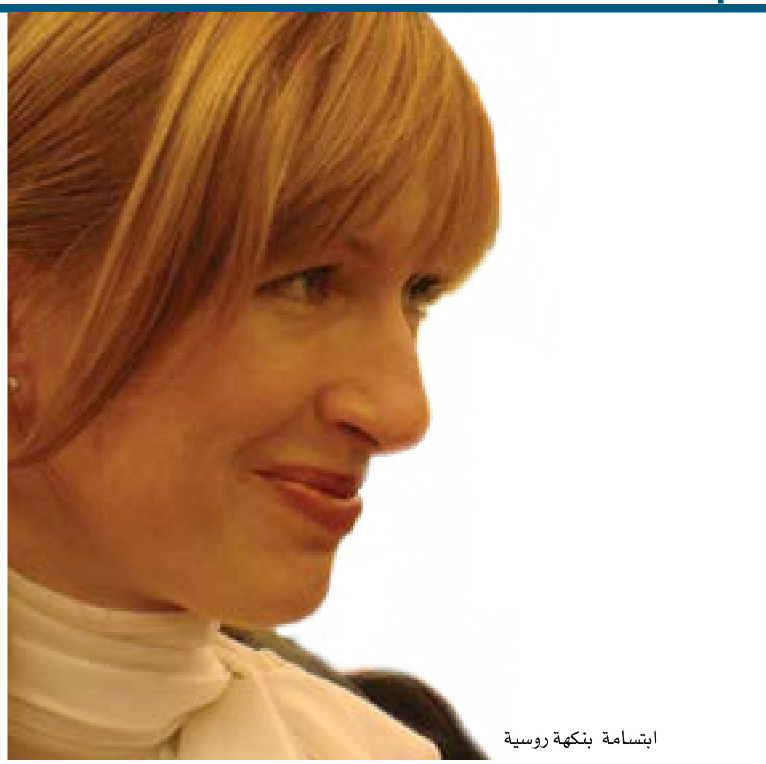

ابتسامة بنكهة روسية

لإدهاش ربع رجال العالم على الأقل، السير الأول في شوارع المدينة، أي مدينة، له بهجته، التسكع الأنيق، أن تتعرف على مكوناتها، أن تحاول حصد بعضاً من يومياتها، أن تفهم لغتها دون ترجمة، يكفيك جرس اللغة لتشعر بالمعنى، دق جرس كنيستها بغتة فذكرتني ببعض من ثقافتها، انتهى الشارع، علي أن أعود بأقدامي لتتبع خطواتها التي مرت قبل قليل، كان الماء مغويًا للخطوات، أضاعها في أسفلت الشارع، لكن الإشارات واضحة، والعلم العماني يرفرف على مقربة فوق بناية السفارة، تأملته بمحبة، وجعلته منارة أهتدي بها إلى المكان.

هي المدينة وقد أفسحت لي بعض أوراقها لعلني أجيد قراءة أبجديتها..

شدّني اكتشاف آخر، لا حاجة لتنتظر السيارات ذات الشكل المميز والدال على أنها «تاكسي». يكفي أن تقف على الشارع وتشير لأي سيارة، ستقف باستعداد تام لتنقلك، لكن عليك التفاوض مسبقا على الأجرة، وإلا فإن هناك مشكلة ما ستنتظرك.

رغبت باكتشاف آخر، مبرمج هذه المرة، سألني الصديق مانع الكثيري (السكرتير الأول بالسفارة العمانية في موسكو) إن كنت أخذت جواز سفري معي، أجبته بالنفي، فاجأني بالقول إنه من الضروري جدا أن يأخذ المرء جوازه معه ليكون في موقف جيد حين يوقفه رجل الأمن، الافتراض الآخر هو أخذه إلى السجن، تذكرت كم كنت محظوظا حين

خرجت في صباح المدينة أتعرف عليها دون أن أحمل في جيبي سوى دولارات قليلة، طمأنني شخص آخر أن بعضا من تلك الدولارات القليلة سيقنع الشرطي بإخلاء سبيلك، أخذ موظف آخر في السفارة جواز سفري ليستخرج لي تصريح إقامة، سألته: والتأشيرة؟ أجاب أنها للدخول والخروج فقط، أما ما بينهما فيحتاج إلى ورقة أخرى.

■ لينين غادر الميدان الأحمر

الميدان الأحمر متسع على الذكريات أكثر من اتساعه على الرؤية.. هي ساحة الكرملين، أو الساحة الحمراء، وكلمة كرملين تعني بالروسية القاعة أو الحصن، ويطلق الاسم على مركز موسكو القديم بمبانيه، ويحيط المكان جدار ضخم طوله نحو ٦٠ قدما وارتفاعه ميلٌ ونصف الميل، ويضم ضمن ما يضم كاتدرائيتان تشتهران بألوانها البديعة وقبابهما الذهبية، ويوجد داخل مبنى الكرملين مدفع صب عام ١٥٨٦م ويبلغ وزنه حوالي ٤٠ طنا، وناقوس صنع عام ١٧٣٥ يعد أضخم ناقوس في العالم فوزنه ٢٥ طنا. يشير تاريخ المكان إلى أنه في القرن الخامس عشر أمر القيصر الروسي ايفان الثالث باستدعاء مهندسين معماريين من روسيا وإيطاليا لتجديد الكرملين، ولذا جاء البناء جامعا لفن العمارة الروسي والهندسة المعمارية الإيطالية في عصر النهضة.

من فوق جسر على نهر موسكو يغدو المنظر هائلا في جماليته، الكنيسة بعمران فائق الروعة تتابعها حكاية المعماري الذي دفع نور عينيه ثمنا لعظمة بنائه حتى لا يكرره في مكان آخر، يقابل الكنيسة برج الكرملين، تشير ساعته إلى تحرك الزمن من حولها كل يوم، لا تهتم ببقية التفاصيل التي يصنعها البشر، يبلغ قطر وجه الساعة نحو ستة امتار، وارتفاع الارقام يصل الى ٧٢ سنتمتراً، وطول عقارب الساعة حوالي ثلاثة امتار، اما عقارب الدقائق فطولها ثلاثة امتار و٢٨ سنتمتراً.

على بقية أضلع الساحة مبان تزيّن عظمة المكان وتجمّلها، على مقربة كانت دائرة في الأرض تشير إلى أنها مركز المدينة، يجد الناس فيها تفاؤلا حيث يقفون في وسطها ويرمون عملة نقدية للخلف، يأتي رجل طاعن في السن يأخذ العملات التي لها قيمة تصلح لتجتمع إلى بعضها البعض بسهولة، مؤلفة فيما بينها قيمة رغيف خبز. كانت هناك المنصة التي عرفت شموخ لينين يلوّح للجماهير الزاحفة في الميدان، لم يعد لينين هناك، ولا الجماهير المأخوذة بقوة الكاريزما، يمر بشر لا يهتمون إلا بأخذ الصور التذكارية لما تبقّى من مجد عابر غاب عنه صنّاعه، في مواجهته استدارة مرتفعة، قيل أنها مشنقة أرسلت للموت، قبل عقود، أرواحٌ ودّعت أجسادا معلّقة من أعناقها، الحياة والموت في ذات الساحة، العظماء وضحاياهم، امعنت النظر فيما تبقى من دائرة المكان، تصبب حزن غريب في أعماقي، حاولت جاهدا أن أهرب منه، لكن، كأن بكاء مرّا يأتي إليّ من خلف أسوار التاريخ يدعوني لسماعه.

■ لينين.. لينين

في زوايا لا تحصى من المكان الموسكوفي يقف أثر ما للينين، أول رئيس للاتحاد السوفييتي، ومن رفع شعار «الأرض والخبز والسلام»، ولد لينين في ٢٢ ابريل ١٨٧٠ وتوفي ٢١ يناير ١٩٢٤م، كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية ضد الإمبراطورية الروسية حين كان يحكمها القياصرة، أسّس المذهب اللينيني السياسي، في نهاية أغسطس من عام ١٩١٨ وبعد أحد الاجتماعات كان يهم بركوب سيارته إلا أن صوت فتاة ناداه ليلتفت إليه، فاجأته الفتاة بثلاث رصاصات جعلته يخشى من التوجه حتى إلى المستشفى خوفا من أن يكون الراغبون في قتله ينتظرونه هناك، شفي من الطلقات النارية إلا أنها تركت أثرا خطيرا على صحته، فتوالت الجلطات الدموية عليه بدأت أولها في مايو من عام ١٩٢٢ شلّت نصف جسمه الايمن، ثم الثانية في ديسمبر، وفي مارس من العام الذي يليه أصيب بالجلطة الثالثة أجبرته على البقاء في الفراش وحرمته من القدرة على الكلام..

وجاءت الرابعة والقاضية في ٢٤ يناير ١٩٢٤، وتشير المعلومات إلى أنه من بين الـ ٢٧ طبيباً الذين اشرفوا على علاج لينين وقع ثمانية فقط على تقرير المشرحة الذي يقول ان سبب الوفاة كان تجلطا في الدم، ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، اتضح ان لينين مات موتا مؤلما وبطيئا ووجد ما يشير إلى أنه كان مصابا بالزهري.

سرت فوق جسر آخر يربط ضفتي نهر موسكو، ثلاث أشجار، تبدو كذلك، زرعت في وسطه تحمل أقفالا لا عدّ لها، هو جسر العشاق، يأتون ليضعوا اسماءهم مع أسماء من يحبون ثم يغلقونها بقفل، تتدلّى الأقفال بقسوة لا تحتملها المشاعر، حتى العواطف تحتاج إلى قسوة الحديد لتبقيها عطرا يبوح به

قلبان حلمهما خلود العشق في وجه البرودة.

من شوارع موسكو الشهيرة شارع أرباط، يقال إن تسميته جاءت من اللغة العربية الرباط، أي مربط الخيل، وقد كان الرحالة العرب يأتون إلى هذا المكان قديما، مشيت في الشارع الممتد والمتسع على مبان ووجوه ومحلات تغري بالدخول، السير فيه متعة، على طرف منه يبدو مبنى وزارة الخارجية الروسية جميلا، المبنى المنطوي على أسرار وحقائق لها قيمتها حيث موسكو ليست كأية عاصمة.

■ المنتصرون يرفعون قبعاتهم

ساحة النصر، العساكر الذين أصابوا مدن العالم بالدوار، هادئة صباحا، بضعة أشخاص يعبرون المكان بروية يقلقها الهواء البارد، النوافير نائمة، الألوان لا تقول حكاياتها، فوق النصب التذكاري العالي تطل التماثيل بأجنحة لها رمزيتها، النصب مرسوم بدقة تكاد لا تترك ثغرة دون أن يضع الفن بصمته عليها، للمكان هيبة لا يخذلها الطقس البارد، وللزمان إطلالة لا يلغيها السلام الدافىء.

المتحف قال الكثير من الحكايات، حكايات الحرب في زمن السلام، كأنه تولستوي يرشونا باندماج الكلمتين تحت سقف واحد لغلاف رواية، في الصور البليغة والبانورامية داخل المتحف الواسع رأيت ستالينجراد وليينجراد وموروسك تحترق، رأيت النار التي يذوب فيها الإنسان أسرع من الحديد والحجر، ورأيته الجنرال الروسي في يده العلم الأحمر يتسلمه ليرفع راية المنتصر فوق ما تبقى من برلين.. وقد سقطت، روعة في مزج المجسمات والأنفاق والرماد في خلفية المشهد حيث يلزم المرء تدقيقا ليعرف أيها التجسيد وأيها اللوحة الباسطة لقسوة الحرب في خلفية المكان؟!

مشهد النار كأنه حاضر في الحرب، وكأنه الجمر يلتهب من الأشياء المحترقة..

■ الهضاب .. والجامعة.. والبنايات السبع

وقفت فوق هضاب لينين، اسم شهير في موسكو، كان الباعة يفرشون بضاعتهم، مزيج من تذكارات وكماليات صغيرة تغري بالشراء، يطلّ المكان من عل على جزء كبير من العاصمة، هناك النهر يسير كما شاء له القدر أن يسير، الهواء البارد يصفع أجسادنا، تتيبّس المفاصل حتى إن الأصابع تكاد لا تستطيع كتابة رسالة نصية على الهاتف النقال، لكن للمكان

معرض للفنون التشكيلية بجوار النهر

سحره، التأمل فتنة العابر، والمدينة تغريه بالحديث إليها، والحسناوات يعبرن العابر وكأنه غير حاضر في وجودها، يكاد أن يقول تريّث، ففي القوام كثير حسن، وفي العيون سحر، وفي القلوب رهافة متوزعة على جمال البشر والحجر.

على الناصية الأخرى تقف جامعة موسكو، إحدى البنايات السبع التي بناها لينين، أو بالأحرى بنتها أيادي الأسرى الألمان، هي أعرق الجامعات، ليس على مستوى روسيا بل عالميا أيضا، تأسست عام ١٧٥٥ م، ويدرس فيها أكثر من سبعة آلاف طالب دراسات عليا ونحو ٤٠ الف طالب وطالبة، وموظفوها نحو ١٥ الفًا، وتستقطب من الطلبة الأجانب نحو الفي طالب سنوي، ويتواجد عادة فيها نحو خمسة آلاف متخصص وباحث، وتنال شهاداتها اعترافا من غالبية دول العالم.

■ ١٢٠ ألف تحفة تحت سقف واحد

كان يوما حافلا بالفن، بدأ بمتحف تريتياكوف، أمام شباك التذاكر، وبعد أن دفع مرافقي ٢٠٠ روبل قيمة تذكرتي دخول أطالت موظفة التذاكر نظراتها في وجهي متفحصة، تتحقق أنني لا أنتمي لهذا البلد، بالميلاد أو التجنس، سالت رفيق المشوار إن كنت روسيا، انتبهت إلى أن الواجب يحتم دفع تذكرة الزائر الأجنبي، كانت ٢٥٠ روبلا لي، ومائة روبل لزميلي الروسي/السوري.

١٢٠ الف قطعة فنية يضمها المتحف الكبير، يحتاج المرء

بطرس الأول واقفا في تمثاله على نهر موسكو..

إلى شهر لو أراد الوقوف دقيقة أمام كل لوحة وتحفة فنية، يصاب المرء بالدوار من كل تلك الجماليات المتوجّب على ذهنه استيعابها، على روحه تذوقها.. وعلى جسده التجلّد لتحمّل السير والوقوف والصعود من سلم لآخر من أجل متعة يبدو وصفها بسيطا إزاء تلك الصور المنثالة دفئا وجمالا، لا تكفي المفردات لكتابة الإحساس بالتجلّي أمام عظمة الإبداع الإنساني من الفنون، عشرات الآلاف من اللوحات على العين أن تراها بسرعة قبل أن تتمكّن من أسر القلب فيتألق مجبرا الجسد على الوقوف، رؤى الريشة وقد أذهلها الكون بأحلامه، بآلامه، بانتصارات المحاربين وانكساراتهم، جنرال بشوارب مفتولة، ودموع تكاد اللوحة أن تتركها تتساقط من الإطار، جداريات ضخمة لمعارك وصلوات وتقاسيم حياة، مشاهد إنسانية مكتوبة بحبر الرؤيا، أمّ تنتظر، طفل يكاد ينطق اللوحة بصفاء نظراته، شكلت المعروضات تاريخا أمينا لواقع الحياة الروسية خلال القرون الثلاثة الماضية، مؤرشفة مشاهد الحياة الإنسانية البسيطة، والأحداث المحورية في تاريخ روسيا، القاعات الأولى ضمّت مئات اللوحات «البورتريه» لفنانين وموسيقيين وكتاب ومفكرين وفلاسفة، هناك تماثيل نصفية من المرمر لمبدعين أثروا الحياة الروسية فنا وفلسفة وشعرا..

ثم كان المقصد ضفة النهر حيث الفنانون يعرضون إبداعاتهم، حملت في كفّي رؤية بسيطة للمكان، رسمتها بهدوء في خارطة رغباتي، لم أحدس بما يمكن أن أراه.

البرد يجمّد ما يستطيعه من الأجساد السائرة بجوار النهر، كانت الالتفاتات واسعة لرؤية ما يمكن أن تقتنصه العين فتسجله على حافة الروح ذكرى من مدينة لها يومياتها ومزاجها، مصنع الشيكولاتة يبعث في الفضاء أدخنته فتبدو في الطقس البارد سحبا تخرج من أنبوبين ضخمين يعلوان سطح المصنع.

كان البحار العظيم يطل من ارتفاعه المذهل، يقف بطرس الأول بحذائه الضخم فوق سفينة مثلت رمزا لما أنجزه، أنشأ أول اسطول بحري في روسيا، التمثال من أهم معالم موسكو، حين يلتقي ضلعي النهر يشمخ التمثال الكبير لهذا القبطان، تحت الشمس المشرقة تركناه يقف، كان المكان متجليّا بعظمة وهيبة التاريخ الموسكوفي، كان مقصدنا ضفة أخرى من النهر، بعض البياض تركه الثلج الهاطل قبل ساعات، لنحو مئات الأمتار امتدّ ممشى يحيط به من الجانبين رافعات حديدية للعرض، كان الاكتشاف مذهلا، كل ذلك الامتداد يتضمن معرضا مفتوحا للفنون التشكيلية، آلاف اللوحات تعرض في الاتساع المكشوف للمكان، الفنانون يعرضون إبداعاتهم، معارض صغيرة متراصّة، بعضها آثر الاحتجاب كون أن اليوم ليس إجازة، أغلبها تضمن لوحات عدة، كل ما تتخيّله النفس من إبداعات تتعلق بالرسم، مدارس حاضرة بقوة الفن وجمال الإبداع، لوحات على قدر كبير من الحرفيّة تتراوح قيمتها بين مئات الدولارات وآلافها، النظر لا يكفي وحده، الإحساس هو الرفيق الأمثل للنظر في تلك الموجودات الرائقة.

لكن الطقس حافل بالمفاجآت، خلال نصف ساعة لم تعد الشمس تسكب أشعّتها مقبّلة تلك الإبداعات كما يحلو لها، بدأت ندف الثلج تتساقط صغيرة، طارت روحي اشتياقا لرؤية حلمية في أن أسير تحت الثلج، أن أشبه أحد أبطال تشيخوف يسيرون في موسكو تحت وطء الثلج والبرد، تحركت العدسة لرصد عشق الروح، كانت الندف الثلجية تكبر، ازداد بياض المكان، كبرت لعبة الحلم داخلي، لم أعد قادرا على الوقوف أمام الكاميرا لالتقاط الصور، كانت قطع الثلج تضرب الوجه بقسوة، كأنها تقول للعابر خذ ما تشتهي من حلمك القديم، هاهي الأرض لوحة بيضاء، واللوحات الجميلة تكاد تنكّس رأسها خجلا من تأنق الطبيعة بفستان زفافها الأبيض، والنهر يعبر بمياه تبدو كأنها الدفء في ذلك الطقس الجليدي، قال مرافقي إنه في الشتاء يمكن السير على النهر، قشرته تتجمد بعمق ٣٠ سم تقريبا، يمشي الماء المختفي تحت جليديته كأنه يضن على البشر برؤية الماء في طقس تبدو فيه أطراف المرء كأنها ليست له.

■ حياة تحت الأرض.. في الأنفاق

قال مانع الكثيري إن من زار موسكو لم يجرب مترو الأنفاق فيها فكأنه لم يزرها، ورغم ما في القول من مبالغة إلا أن متعة الاكتشاف لازمة، ربما لا يتصور سكان العاصمة حياتهم دون مترو الانفاق هذا، هو متحف، رمز تاريخي، عنصر هام في صياغة الحياة اليومية لسكان موسكو وزوارها، وتكفي معرفة أن عدد مستخدميه يبلغون عشرة ملايين راكب يوميا، أي ٣٠٠ مليون راكب في الشهر!!

كان لا بد من التعرف على وجه مهم من وجوه المدينة، حملت بعضا من رؤيتي للمكان أحاول بها تصوّر قدر من الجمال الذي ينتظرني، مترو أنفاق موسكو، المكان الذي يقال إنه متحف تحت الأرض، لكن ما اكتشفته بعيداً عن تصورات المخيلة، وقفت في طرف السلم الكهربائي فرأيته هابطا إلى ما يشبه الحفرة العميقة جدا، تصورت أن كلمة «بئر» في حياتنا تغدو مفردة صغيرة أمام هذا العمق، لا يمكن تصور أن يكون تحت كل هذه المسافة في باطن الأرض ملايين البشر يتنقلون يوميا، وعشرات المحطات التي تعد كل واحدة منهن تحفة فنية، كلمة تحفة تبدو بسيطة (أيضا) في الوصف إزاء تلك الروعة العمرانية لكل محطة، لا تتشابه أي محطة مع الأخرى، المحطة تقف لوحدها لوحة راقية دالة على ملامح ما من التاريخ الروسي، قديمه وحديثه، كأن هذه المحطة لا يوجد سواها في خارطة شبكة المترو، عندما ترى غيرها تنسى الأولى وجمالها منشغل بروعة الأخرى..

الأعمدة والجدران والأسقف والرخام واللوحات والتماثيل والثريات المعلقة والأضواء، جميعها مشغولة بفن مبهر، تنسى أيضا أنك تحت عمق نحو ١٥٠ متراً حيث تسير المدينة وكأن لا شيء أسفلها.. كأن ملايين البشر في شوارعها ومبانيها لا يبالون بالإبداع ، لكنها كافية لإعطاء درس في فنون الجمال للسائر.. أول مرة.. لم يشغلني ما يشغل الآخرين، لهم اتجاهاتهم ولي اتجاه واحد، هو قراءة ما أمكن من تلك الروائع، مغادرة محطة والهبوط إلى أخرى، تاركا لآلاف العابرين مهمة السير نحو مقاصدهم، ولروحي متعة الرحيل باتجاه جماليات المكان.

الوجوه قد لا تحفل بتلك الجماليات، في حياتها ما هو أهم، رغيف الخبز والأجور وغلاء المعيشة، ما يفيد الفن إن كان البطن يشتكي الجوع.. لم أشاهد جائعا، لكن الحياة الباهظة التكاليف للمدينة والوجوه الجامدة المرهقة جعلتني أتصور أن كل هذا الجمال غدا متكررا وفاقدا لتأثيره الروحي على الذين يكادون لا ينظرون إليه.. أبدو وسط تلك الجموع الراكضة كائنا غريبا يقترب من الحيطان ليرى إبداعات الرخام عليها، وفي الأسقف ليكتشف أي فن هذا المرسوم في كل زوايا السقف الطويل للمحطة، كأن تلك الجموع كائنات متكاثرة تحت الأرض، وأن لا علاقة لها بمن هناك فوق السطح.

تشير المعلومات إلى أن مترو الأنفاق في موسكو تأسس في بدايات القرن العشرين، ففي عام ١٩٠١ وضع مهندس يدعى انطونوفيتس لبنة الخطط لبناء المترو لكن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أجلت المشروع حتى ثلاثينيات القرن الماضي حين جندت كل البلاد السوفيتية عبر نحو ٥٠٠ مؤسسة وشركة وظهر أول نفق للمترو عام ١٩٣١ في حي يسمى روساكوفسكوي ليتواصل العمل ليلاً نهاراً حتى عام ١٩٣٥ والذي شهد فتح ١٣ محطة أبوابها لأول خط للمترو قام بحمل الركاب، وشهدت فترة الخمسينيات ذروة العمل في المترو، ويبلغ طول خطوطه ٢٦٠ كيلومتراً تضم ٥٤٠ درجا كهربائيا بطول ٥٥ كيلومترا، ورغم أنه

قفول الحب ذاكرة المفاتيح التي تلقى في النهر

الرابع بالنسبة لأرقامه القياسية إلا أنه الأول في عدد الذين ينقلهم يوميا، وهو يعد الأرخص للسكان كوسيلة نقل آمنة ومضمونة.. وموفرة للوقت.

وفي أيام الحروب لعبت محطات المترو دورا حيويا في التاريخ الروسي، كان ستالين يعقد اجتماعاته في إحدى محطاته، وخلال الحرب العالمية الثانية، ومع نهاية عام ١٩٤١ تحولت محطاته إلى ملاجئ، وعرباته إلى مستشفيات متنقلة، وفي بعضها عمل الصنّاع ليلاً نهاراً على إنتاج أسلحة وذخائر ترسل إلى جبهات القتال، وبينها من كان مراكز للمؤسسات، سواء المدنية أو العسكرية، واحتضن بعضها اجتماعات القيادة العسكرية العليا لجيوش الاتحاد السوفييتي.

أمام قوة التاريخ وقسوته..

ومع متطلبات العصر وانفتاحه..

لا يكف مترو أنفاق موسكو عن التمدد لإيصال طول خطوطه الى ٤٢٠ كيلومتراً، والتي ستنقل نحو ٤،٥ مليار شخص سنويا.

■ داتشا لكل مواطن

الساعات الأخيرة في موسكو حافلة بالاكتشاف..

من غرفتي رأيت الثلج ينهمر بيباضه، ما أروع أن ترى الثلج بينما يقبع جسدك وراء زجاج يحتمي من برودة الطقس بدفء المكان.

حملتني السيارة مع حقائبي ميمّمة وجهها خروجا من موسكو باتجاه ضواحيها القريبة، والمقصد: داتشا، هكذا اتفقت مع صاحبها علي شعبان، المهاجر السوري الذي استوطن موسكو واختار شريكة حياته منها، لديه ولدان: حبيب وكريم، لكنهما لا يعرفان شيئا من لغة والدهما العربية، هوايتهما جمع الحشرات، كانت العائلة رفيقتنا إلى الداتشا.

سرنا نحو ٥٠ كيلومتراً تحت المطر والثلج، قبل أن نصل أغرتنا بحيرة بالتوقف عندها، سطحها الأبيض متألق بلونه الرائع، نحو مئات الأمتار كانت أشباحاً سوداء تجلس فوق سطح البحيرة المتجمد يصيدون الأسماك عبر ثقب في البياض وصولا إلى الماء المندسّ تحت قشرته البيضاء السميكة، لم نغامر بالاقتراب منهما، خشيت فخا من الثلج، ما أسوأ أن ينصب البياض فخاخه الباردة، بما لا طاقة للتكهن بمدى السقوط.

الداتشا هي قطعة أرض مساحتها ٨٠٠ متر في المتوسط، وزّعت في عهد الاتحاد السوفييتي، وعلى المواطنين لزراعتها بما يحقق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، حاليا أصبحت أشبه باستراحات تبدو فيها المساكن الصغيرة متباينة، ودالّة على الثراء الذي يتمتع به صاحبها، أكواخ خشبية بائسة أو فيلا جميلة لا يلغي حجمها الصغير أناقتها.

اقتربنا من الغابة الواقفة بأشجارها العارية، حتى قاماتها كانت تحمل آثار البرد، بينما تكون الثلج فوق جذورها بسمك لا يدل على أن الفصل ربيع، كانت الأسوار الخشبية تفصل الداتشات عن بعضها البعض، الحوش بياض، وفي الداخل كانت الفطائر اللذيذة مع الشاي الساخن بانتظارنا، اشتعلت المدفأة بما ألقي إلى حلقها من صحف لتتوقد بجمرها، في الجزء الأعلى من الكوخ كانت الأفرشة وطقم الجلوس تنتظر إطلالة على المكان في خارجه، كل شيء من الخشب، جذوع الأشجار الضخمة تغطيها الأخشاب من الخارج والداخل، وتوضع قطع الاسفنج بين الجذوع وقطعة الخشب لعزل البرودة الخارجية عن الوصول إلى داخل المكان.

حط الثلج كثيرا فوق كتف المسافر..

من زجاج المطار لوّح للثلج، لوّح له البياض، وحتى الرؤية الأخيرة من خلال نافذة الطائرة أصرّ على أن يلوّح بيده للمدينة.. المتصالحة مع بردها وثلجها.

التقني

التفرد في إنتاج المنظمات العازلة للحرارة

٥ خطوات لحذف نفسك

بشكل كامل من شبكة الانترنت

«جيف بيزوس»..

علامة بارزة في القراءة الإلكترونية